كيفِ نـقرأ؟ [٢]

النَّوعُ الأوّل مِن أنواعِ القِراءةِ: القِراءةُ الاسْتكشافِيّة

أ.د. محمود توفيق محمد سعد (*)

فــي المقال الســابق ذكرتُ أن القــراءةَ النَّفِيعَةَ أربعةُ أنواع: قراءةٌ استكشــافيّةٌ، وقــراءةٌ ناقدةٌ بأركانها الخمســةِ (التَّحليلِ - التَّأويلِ - التَّعليلِ - التَّقويمِ - التقديرِ)، وقراءَةٌ اسْــتنْباطِيّةٌ، وقراءةٌ اسْتِثْمارِيّة.

ومِن قبلِ أنْ أسْــتفتحَ القولَ في هذه الأَنْواعِ أسْــتحْضِرُ في الْوَعيِ قاعـدةً قرآنيّةً كليةً قائمةً في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)

ليكن حاضرًا في فؤادِك في أيِّ عملٍ تَرجُو مَثوبتَهُ حُضُورًا فاعلًا هذان الشَّــرْطَانِ، فهُما شَــرطُ صِحّةٍ: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

(الأوّلُ) يســتوجِبُ علــى المرءِ بَذلَ الجُهدِ فــي امْتِلاكِ المَهاراتِ المَعرفِيّــة والعَمَليّة لِتحقيقِ ما يُريدُ مِنْ عملٍ يقُومُ له، ويسْتوجِبُ امتلاكَ الأدواتِ اللَّازِمةِ لتحقيقِه تحقيقًا مُتقَنًا يُحبّهُ اللهُ تعالى، ويستوجِبُ فتوَّةَ العَزمِ وعُلُوَّ الهِمّةِ.

(والآخَرُ) يَسْتَوْجِبُ صَفاءَ القَصْدِ واسْتِشرافَ القُربِ الأقدسِ مِن اللهِ -سُبْحَانَهُ وبِحَمْدِهِ-.

ذَلِـك في كُلِّ عَمَلٍ، وفِي طَلِيعةِ الأعمالِ: «القِراءَةُ العِبادِيّــة»؛ لأنَّها مفتاحُ كلِّ نُجْحٍ. عَملٌ بِلا عِلْمٍ مُحَقَّقٍ نَصِيحٍ صَرِيحٍ هُوَ فِي الضّلال أبْقَى، وإِلَى الْفَسَادِ أقْرَبُ.

وَجِيزُ القولِ في النّوعِ الأوّلِ: القِراءَةُ الاسْتِكْشَافِيّةُ.

هِي مُفتَتَحُ الفِعلِ القِرائيِّ: يَستكشِفُ بها القارئُ ما يَعمِدُ إلى قِراءتِه.

وهذِهِ القِراءةُ الاسْتِكْشــافِيَّةُ هِي الّتِي تجعلُك مقتدرًا عَلَــى أَنْ تُعيّنَ الْمَنْهَجَ الّذِي تقرَأُ بِهِ الكِتاب

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

والأدواتِ الّتِـي تُنجِزُ بِها ذلكَ المنهــجَ وأَنْ تحدّدَ بها المَغزَى الرَّئيسَ مِنْ قِراءتِه، بَلْ تُعِينُكَ علَى أنْ تحدِّد الوقتَ الّذي ستقرأُ فيه ذلك الكِتابَ قِراءةً ناقدَةً، فكَمَا أنَّ لِكلِّ عِلمٍ وقتًا يُمارَسُ فِيه تَلقِّيه، فإنَّ لــكلِّ كِتابٍ في ذلــكَ العِلمِ وقتًا يُقرأُ فِيه، فَثَمَّ كُتُبٌ لا يَصلُحُ أنْ تُقرأَ فِي خِتامِ يَومِك الجَهيدِ، ولا فِي مُنتَصَفِه. وثَمَّ كُتُبٌ لا يَصلُحُ أنْ تَسْتفتِح بِها يومَكَ.

ومِن سُــنّتِي أنِّي أُمارِسُ القِراءةَ الاسْــتفتاحيّة الاسْــتطلاعِيّة فِي ختامِ يومـي الجَهيد لأُحدِّد مِنْ خلالِها مراحلَ المجاهدَة في اليَومِ التّالي.

القارئُ النّصِيحُ يقيمُ لنفسِــه برنامجًا قرائيًّا، يرسُــم فيه خارطةَ الطَّريــقِ إلى الوفاءِ بحقِّ هذه العبادةِ: القراءةِ المُفضِيَةِ إلى مقامِ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ (العلق: ١٩). والقِراءَةُ الاستكشــافيةُ ذاتُ أثرٍ فعيلٍ فَحيلٍ فيتحقَّقُ ذلك.

القراءةُ الاستكشافيةُ تقيمُ في داخلِك رقيبًا نصوحًا يحدّدُ لك ما تقرأ ولِماذا تقرأُ، وكيفَ تقرأُ ما اخترتَ قراءته.

ومجالاتُ هذه القراءة تتمثّل فِي: اســتطلاع عُنوان الكِتابِ ومؤلِفه، مقدّمتِه وخاتمتِه، مُلخّصَات فُصولِه -إنْ وُجِدَتْ-، فهرسِ موضُوعاتِه، ومَصادِره.

أوّل ما يلقاك أمْرانِ: عُنوانُ الكِتابِ ومُؤلّفُه.

أمَّا المُؤلِّفُ، فَغيرُ قليلٍ مِن طلابِ العِلم لا يكادُ يلتفتُ إلى العِرفان بشأنِ مؤلّفِ الكِتابِ وتكوينِه العَقلــيّ والنَّفسِــيّ، ومَنهجِهِ فــي الإفهامِ والإبانةِ عَــن معانيه ومَغازِيه، بــل إنَّ منهم من يفرغُ من الكتابِ ولا يعرفُ اســم المؤلّف حُسْــبانًا منْه أنَّ ذلك لا أثرَ له في حُسنِ الإفادةِ مِن الكتاب. وهذا ما يَجِبُ التَّطهُّرُ منْه، فإنَّ ضُره جِدُّ فَحيلٍ.

صَانِعُ كلِّ كتابٍ -ولا سِــيّما أصحابُ المقَاصد والمذاهبِ الفكريَّةِ والسُّلوكِية مِن المُؤلّفين- إنّما يَغزوك بِه، نعم، يغزونك بكلّ ما تحملُه الكلمة مِن معنًى -هُو بِه يَتولّجُ فؤادَك، يأسِرهُ، لِيسُوقَه إلى ما يريدُ أن يُقيمكَ فيه إنْ خيرًا وحقًّا، وإنْ غيْرهما، فإنْ لم تكُن على بيّنةٍ منْ ذلك، فأنتَ «كَسَاعٍ إلى الهَيْجا بغيرِ سِلاحِ» القِراءَةُ الْعِباديّة جِهادٌ.

العالِمُ يتخذُ الإقناعَ والمُحاجة سَــبيلًا إلى تقريرِ معانيهِ وبلوغ مغازيه، والشَّــاعر يَتخِذ التَّخييلَ سبيلًا إلى تقريرِ معانيهِ وبلوغِ مغازيه.

ولا يليقُ بقارئِ عِلْمٍ أنْ يَطعَم مِنْ مائدةِ مَنْ لا يَعلَمُ عَنْهُ مَا يَجعَلُه وَاعيًا بَصيرًا بِمَا يَطعَمُ، فإذا ما كانَ هَدْيُ النُّبُوَّة يَنْهانِي عَنْ أنْ يأكُلَ طَعامي غَيرُ التَّقيِّ، فكيف بِي أطعَمُ أنا مِن طَعامِ غيرِ التَّقيِّ؟!

روَى أبو داودَ في كتابِ «الأدب» مِن سُــننِه والتّرمِذيُّ في كتاب «الزُّهد» مِنْ جَامِعِه، وأحمدُ في مُسنده؛ بِسندِهمْ عَنْ أبِي سَعِيدٍ الْخدريِّ -رضِي اللهُ عنه- عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا

ولَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيّ»[1].

كأنَّ في هذا نَهيًا عن أنْ تطعَمَ أنتَ طعامَ مَنْ لَيس تقيًّا، بطريق مفهومِ الموافقةِ (فَحْوَى الْخِطَابِ، ولَحْنِ الْخِطَابِ) كالّذي في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء: ٢٣)

وليسَ طَعامُ فؤادِك بأدنَى أهميَّةً وأثرًا فِيكَ مِنْ طعامِ جَسدِك، بلْ هو الأفْعَلُ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عَبَسَ: ٢٤)

وأوّلُ النَّظرِ إلى طَعامِ فؤادِك، النَّظرُ إلَى صَانعِه، فَفَريضةٌ عليك استكشافُ شأن «المُؤلِّف» لِتكونَ على بصيرةٍ بتكوينِه العِلميّ والنّفسيّ واللِّسانِيّ، وبِمذهبِه العَقديّ والفِقهِيّ واللِّسانِيّ، فتتمكَّن مِن الأخذِ عَنْهُ علَى بَصيرةٍ.

وقَد هدانا إلَى أهميّةِ مَعرفةِ شأنِ القائلِ وأحوالِه لِنُحسِنَ فقهَ مقالِه سيّدُنا أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ -رضِي اللهُ عنه-؛ روَى الإمامُ أحمدُ في مُسْندِه بسنده عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ عَنْ عَلِيٍّ ﵁ قَالَ: «إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَى وَالَّذِي هُوَ أَهْيَا وَالَّذِي هُوَ أَتْقَى».[2]

تبصَّرْ قوله: "الَّذِي هُوَ أَهْدَى وَالَّذِي هُوَ أَهْيَا وَالَّذِي هُوَ أَتْقَى"، فذلك يَهديك إلى أنَّ مَعرفةَ شأنِ القائلِ عاملٌ رئيسٌ إلى حُسنِ الفهمِ عَنْه، وكذلِك الأمرُ في شأنِ قراءةِ كتابٍ أو نصٍّ إبداعيٍّ، فلا يُؤتَى المؤلِّفُ من قِبَلِك، فتفهمَه علَى غيرِ وجهِ الحقِّ الّذي قصدَ، ولا تُؤتَى أنتَ مِن قِبلِه، فتثِقَ به على غيرِ بيِّنة، فتهلِك.

يقولُ أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): "كان عبدُ الرَّحمن بنُ إسحاقَ القاضِي يرْوِي عنْ جدهِ إبراهيمَ بنِ سَلَمة، قال: سَمعتُ أبا مُسلِم يقولُ: سَمعْتُ الإمامَ إبراهيمَ بنَ محمَّدٍ [حفيد ابن عباس] يقول: "يَكفِي مِن حظِّ البلاغةِ أَن لا يُؤتَى السَّامِعُ مِن سُوءِ إفهامِ النَّاطقِ، و[أن] لا يُؤتَى النَّاطقُ مِن سُوءِ فَهمِ السَامِع.

قال أبو عثمان [الجاحظ]: أمَّا أنَا فأسْتحسِنُ هَذا القولَ جدًّا"[3].

واللهُ سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسْرَاء: ٣٦).

وكانَ للأعيانِ من أهلِ العلمِ عنايةٌ في فواتحِ أسفارِهم بِذكْرِ بعضِ مِن المصادرِ الّتي صَدرُوا

(١) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري برقم ٤٨٣٢.

(٢) رواه ابن ماجه عن علي رضي الله عنه برقم: ٢٠.

(٣) البيان والتبيين، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٠٥هـ. ج١، ص ٨٦، ٨٧.



عنها؛ لِيكونَ القرّاءُ ذوي عرفانٍ بالرّوافدِ الَّتي استمدَّ المؤلفون منها، وبالموائدِ الَّتي طَعمُوا عَليْها، ولِيتبيَّــن لهم ما أخذُوا ومــا تركُوا، وما فعلُوا فيما أخذُوا، لتفعلَ أنتَ قَارئًــا مَعَهمْ مِثلَ ما فَعلُوا مَعَ أشياخِهم.

تجـدُ هذا فِي مقدمةِ كِتابَي ابْن أبــي الإصْبَع: عبدِ العظيمِ بنِ عبدِ الواحدِ بنِ ظافرٍ العدوانِيّ (ت ٦٥٤هــ): «بَديعِ القُرآنِ» و«تحريرِ التَّحبيرِ فِي صِناعةِ الشّعرِ والنَّثرِ وبَيانِ إعجازِ القُرآن»، وكذلِك البَهاءُ السُّــبكِيّ: أحمدُ بن عليّ بن عبدِ الكافِي (ت ٧٧٣هــ) في كتابِه «عَرُوس الأفراح» فهُو القائلُ في فاتحتِه: «واعْلَمْ أنَّنِي لَم أضَعْ هذا الشَّرحَ، حَتَّى اسْتعَنْتُ عَليْهِ بِنحوٍ مِن ثَلاثِ مئةِ تَصنِيفٍ».

فإذا ما وفَّى القارئُ حقَّه مِن العِرفانِ بشأنِ مَن يحملُ عنه العلمَ، ومَن يُجرِي حِوارًا صَمُوتًا معَه، ويَبْذُلُ بَعضًا مِن عُمُرِه وجَهدِهِ في قِراءَة ما كَتَبَ ويفتَحُ له قَلبَه، فحقّ له أو عَليْه من بعدُ أنْ يَتَبصَّر عنــوانَ «الكتابِ» أو المقَالِ ونَحْوِه، ولا سِــيّما كُتُبُ الأعيانِ ومقالاتُهمْ، فَفِقْــهُ عُنوانِ الكِتابِ مِفتاحٌ لِحُسنِ البَصرِ بِموضُوعِهِ ومجالِهِ ومَنهجِهِ، فَمِنْ أُسُسِ جَودَةِ عُنوانِ الْكُتُبِ العِلْميَّة أنْ يَكُونَ العُنوانُ مُحققًا وَظِيفَتَهُ الَّتِي يَضّطلِعُ بِها.

***



